الفصل 11
استرداد طعامنا

«الطعام هو القوة... هل تتحكم أنت في قوتك»؟

ـ جون جيڤونز

قم بالسير في ممرات سوبرماركت محلي وسترى شيئاً لم يُسمع به تقريباً منذ خمس سنوات ـ صناديق من المنتج العضوي، رفوف مكتظة بصلصة بندورة ورقائق ذرة عضوية المنشأ بدءاً من معلبات الفاصولياء المتوارثة العضوية، إلى علب رقائق البسكويت العضوي التي تحوي على قطع من الشوكولا ـ ويتزايد الطلب. ويعرف هذا في الولايات المتحدة باسم عضوي وكذلك الأمر في المملكة المتحدة، وفي بقية أنحاء أوروبا يطلق عليه اسم طعام حيوي. ومهما كانت التسمية التي يتخذها، فإن هذا الاتجاه المتنامي يعمل على تغيير مسار الزراعة العالمية.

إذن ما الذي حدث؟ ماالذي أوجد هذا الارتفاع الكبير في إنتاج وتوفير الأطعمة العضوية؟ الشيء المؤكد ـ أن ما حدث لم يكن بسبب عودة التجارة الزراعية العملاقة، وشركات المواد الكيميائية وشركات الأغذية إلى صوابها واتخاذها قراراً بأن الزراعة العضوية كانت أفضل للبيئة والإنسانية. لا، إن السبب في كون منتجات الأغذية العضوية قد أصبحت متاحة أكثر عالمياً، بل يعود إلى أن الناس، عامة، الناس العظماء، قد بدؤوا بالعودة إلى صوابهم. وقد أدرك المزيد والمزيد من الأشخاص تدريجياً الأخطاء الكامنة في تناول طعام ملوث بمواد كيميائية وبدأوا يقلقون على صحة أولادهم، وبدؤوا يسألون عن المنتجات العضوية في متاجر السوبرماركت، ومخازن البقالة، ولقد كانوا مستعدين حتى لدفع نقود إضافية من أجلها.

إن ما علمنا إياه هذا الصعود المثير للأغذية العضوية هو أننا نحن، الناس، نستطيع وبفضل المنتجات التي نبتاعها ـ وتلك التي لانبتاعها ـ أن نغير الممارسات الزراعية العالمية. فقد أصبح واضحاً في هذا المثال كما في غيره من الأمثلة أنه بينما يندر أن يكون للشركات الكبرى حافز لإجراء تغييرات نتيجة لمخاوف صادقة، فإنها تكون شديدة الحساسية إزاء الكيفية التي يرغب العامة في اتباعها في إنفاق أموالهم. فالجزرة المعلقة واضحة ـ الربح. وإذا كان الناس يفضلون المنتج العضوي على ذاك المسوق بواسطة المواد الكيميائية، فهناك إذن حافز قوي لإيصال السلع. فصناعة الغذاء يقودها طلب المستهلك.

وعلى عكس الكثير من البدع الغذائية التي تظهر وتختفي، فإنه من غير المحتمل أن يتلاشى الطلب على المنتج العضوي. فإن رغبتنا في الحصول على غذاء خال من المواد الكيميائية، ونظام زراعي متوافق مع البيئة والذي سيعمل على مساندة الفلاحين وتوفير حصاد مستدام في العالم النامي، باقية إلى الأبد. وهي آخذة بالتزايد ـ شراء حاجة واحدة، لقمة واحدة، صوت واحد في كل مرة. وفي عام 1990 اشترى المستهلكون ما قيمته بليون دولار من الأطعمة والمشروبات العضوية. وبعد ذلك باثني عشر عاماً ارتفع ذلك الرقم إلى (11) بليون دولار. واستناداً إلى نسبة النمو هذه، فإن معظم الأغذية التي تباع في الولايات المتحدة ستكون عضوية بحلول عام (2020) ونحن نرى الاتجاه الواعد ذاته في كل من كندا وأوروبا.

الزراعة الحكيمة

إن السبب الآخر الذي يقف وراء الصعود المتنامي للأغذية العضوية هو أنه بالرغم من الاعتقاد السائد بأن النظام ليس فعالاً ولا مربحاً، فإن الأمر ليس كذلك. لقد حاولت الشركات الكبرى بالطبع أن تسحق الزراعة العضوية بحجة أن العائدات المالية للمحاصيل ستكون ضئيلة جداً، وربما يكون العمل كثيفاً جداً إلى حد أن المزارعين لن يكونوا قادرين على إعالة أنفسهم فكيف بهم أن يطعموا

العالم. ولكن هذا الأمر يجري دحضه مرة تلو الأخرى. ويكتشف المزيد والمزيد من المزارعين أن المزارع العضوية التي تحتوي على محاصيل دوارة متنوعة، أقل عرضة للأمراض بكثير، وأكثر تكيفاً مع الظروف المناخية غير المواتية. إن (25%) من المزارعين المستدامين في الولايات المتحدة والذين نذروا أنفسهم لإيجاد أنظمة بيئة صحية بدون الاعتماد على المواد الكيميائية لديهم حالياً عائدات مالية أعلى من تلك التي لدى المزارعين الصناعيين في البلاد. كما أن مزايا الزراعة العضوية يكون لها تأثير أكبر أيضاً خلال سنوات الجفاف، عندما تنتج مثل هذه المزارع غلالاً أكبر من تلك التي ينتجها المزارعون الذين يستخدمون المواد الكيميائية ـ تراوحت النسبة مابين (33%) إلى (41%) في عام 1998 والأمر ذاته يحدث خلال الفيضانات: فعندما تختفي حقول بكاملها تحت صفحات من المياه، يكون خطر حدوث تعرية للتربة في حقول الزراعة الأحادية أكبر من الخطر الذي يهدد حقول الزراعة العضوية.

هنالك ملاحظة جانبية مفادها أن الزراعة العضوية تستطيع المساعدة على وقف الاحتباس الحراري في العالم. وقد توصلت مؤسسة راندیل إلى تقديرات ترى أن باستطاعة أميركا الامتثال لطلب اتفاقية كيوتو المتعلق بتخفيض انبعاث غازات البيوت الزراعية البلاستيكية بنسبة سبعة بالمئة، وذلك بأن تقوم ببساطة بالتحول كلياً إلى الزراعة العضوية. وتستخدم الزراعة الأحادية الصناعية من وقود النفط ما نسبته أكثر بنسبة (30%) من الوقود المستخدم في الزراعة العضوية.

ليس مفاجئاً إذن أن المزيد والمزيد من المزارعين باتوا يحولون محاصيلهم إلى محاصيل عضوية. ففي عام 1997 كان لدى الولايات المتحدة (40.8) مليون هكتار من الأراضي المخصصة للزراعة العضوية. وبعد ذلك بأربع سنوات فقط وفي عام 2000 تضاعف ذلك الرقم تقريباً ليرتفع إلى (81.2) مليوناً. وحتى الأعمال التجارية الكبيرة تتحول إلى العضوي معلقة الآمال على تحسن الأرباح. وتستخدم شركة (بارامونت) أكبر شركة لزراعة الحمضيات في كاليفورنيا وسائل مستدامة في حوالي ثلث مساحة أراضيها، وتنتج تقريباً (120) هكتار من الأغذية العضوية.

الحقيقة أن المزراعين في جميع أنحاء العالم يتحولون إلى الزراعة العضوية لأنها تعمل بشكل أفضل. وكما سبق أن ذكرت في الفصل الثالث، فإن الحكومة الأثيوبية متأثرة جداً بالعائدات المالية المتزايدة للزراعة العضوية، إلى حد أنها تتبنى الزراعة العضوية باعتبارها أحدى استراتيجياتها الرئيسة لمواجهة المجاعة وتحقيق الأمن الغذائي. فقد تبنى أكثر من (100,000) من مزارعي البن في المكسيك وسائل إنتاج عضوي كاملة ورفعوا عائداتهم المالية بمقدار النصف. وإذا ما أجريت مسحاً لرفوف البقاليات ومحلات السوبرماركت، فإنك سترى أصنافاً عضوية من عدة بلاد (وكذلك تلك التي تزرع في الظل، وتلك القائمة على أساس التبادل التجاري المتكافئ بمعنى أن المزارع يحصل على ثمن عادل بدلاً من استغلاله). والأمر نفسه يصح بالنسبة للشاي.

المزيد من الحيوانات يتفقون: العضوي مذاقه أفضل

ليس هناك من فحص نظامي للحيوانات، ولكن هناك بعض الملاحظات التي تفيد أنهم، ومع حسهم العالي غالباً بالشم والتذوق يختارون العضوي بدلاً من اللاعضوي، عندما يترك لهم الخيار. ولقد نُقل عن الحارس نايلز ميلتشيورس من حديقة حيوانات كوبنهاغن قوله: «لسبب أو لآخر فإن حيوان التابير الاستوائي وقردة الشمبانزي تفضل الموز المزروع عضوياً على غيره». وقد لاحظ أيضاً أنها عندما تُعطى الموز العضوي فإن الشمبانزي تأكلها بقشرها كلها. ولكن إذا ما قدم لها موزاً غير عضوي فإن الشمبانزي تقوم غريزياً بتقشيرها قبل أن تأكلها. وكان قد عرض على الشمبانزي هيربي الموجود في محمية يملكها أصدقاء من مدينة بند، بولاية أوريغون، أربعة أصناف من الطعام: بندورة، وباذنجان، وحليب وعصير برتقال. ومن بين ثلاثة من هذه الأطعمة الأربعة (جميعها عدا الباذنجان) اختار هيربي منها العضوي على ماعداها من الأطعمة المنتجة تجارياً.

في الحقيقة فإن البشر أيضاً، يفضلون العضوي، وبالنسبة للذين يأكلون منا نحن طعاماً عضوياً على نحو منتظم، فإن الاضطرار لأكل غير العضوي، قد يشكل صدمة تماماً لأن هناك بالفعل اختلافاً في المذاق.

العضوي العميق والعضوي السطحي

بدأت الحركة العضوية أول ما بدأت كحركة معارضة لسيطرة الشركات المتزايدة على مخزوننا الغذائي. وكان لدى الحلم العضوي منذ البداية ثلاثة جداول أعمال، زراعة غذاء صحي على توافق مع الطبيعة، والحفاظ على التنوع الغني للأطعمة المحلية، وإيجاد طريقة جديدة لتوزيع الغذاء عن طريق أسواق المزارعين والتعاونيات الغذائية.

ويختار الكثير من المستهلكين الأغذية العضوية بسبب الجزء الأول من الحلم ـ الرغبة في تناول طعام صحي وآمن ومزروع بشكل لائق. وربما نرغب نحن أيضاً أثناء قيامنا بتسوق مشترياتنا العضوية، في أن نعتقد أننا ندعم الأنظمة البيئية المختلفة والمزدهرة التي تشكل مصدراً لهذه الأطعمة العضوية ـ مزارع الأُسر الصغيرة بصفوف الأعشاب ذات الرائحة الزكية والخس المتوارث وعيدان الذرة وأكوام من نباتات القرع الصيفي.

حقاً إن آلية التعبئة التي تتبعها الصناعة العضوية ـ مع طباعة المناظر الريفية والصور المريحة لعالم الطبيعة على العديد من البطاقات ـ لابد وأنها تجعل هذه الرؤية عالقة في الذهن دوماً. وقد ذكر معظم الأشخاص ممن يشترون منتجات عضوية والذين شملهم استطلاع للرأي أعدته شركة «هول فودز ماركت» ذكروا أنهم يعتقدون أن أغذيتهم العضوية زرعت في مزارع صغيرة. غير أن الواقع لا علاقة له بالحياة الريفية إلى هذا الحد .

وبسبب كون الأغذية العضوية حالياً جزءاً من صناعة تغطي البلايين من الدولارات والتي تنمو بنسبة (25%) سنوياً، فهل هنالك ما يبعث على الاستغراب في انضمام شركات الأغذية العملاقة إلى هذا المجال الأوفر حظاً في تحقيق الأرباح؟ هناك على سبيل المثال خطوط إنتاج عضوي مثل «مُوير غلين» و «كاسكيديان فارم»، وتملكهما في الواقع شركة «جنرال ميلز». وتملك السلالة المالكة لشركة هاينز تشكيلة متنوعة من بطاقات منتجات عضوية مألوفة بما فيها «ليتل بير» و «وولنات إيكرز» و «هيلث ڤالي». وقد اشترت شركة كوكاكولا شركة

«أودوالا» الصاعدة لصناعة العصائر والتي تلقى رواجاً شعبياً على نطاق واسع. ومع التطور الأخير لصناعة عصير البندورة الغني بسكر الفاكهة العضوي فهل يستغرق الأمر طويلاً، قبل أن نرى الكولا العضوية؟

ولكن عندما تقع الحركة «العضوية» في قبضة الأعمال التجارية الضخمة فإن علينا أن نكون حذرين. إلق نظرة عن كثب على شركة «جنرال ميلز» ثالث أكبر تكتل لشركات الأغذية في أميركا الشمالية. وسترى أن حملة الأسهم الأساسيين فيها يتضمنون شركة مونسانتو، وإكسون موبيل، وشيفرون، ودوبون، وداوكيميكل، وسلسلة مطاعم ماكدونالد. وهناك هاين سيلستيال، الاسم الكبير الآخر في عالم الغذاء العضوي، ولديه أيضاً لائحة أسماء مثيرة للاهتمام من حملة الأسهم، بمن فيهم مونسانتو، ووول مارت، وفيليب موريس، واكسون موبيل.

ملوك الماضي وملوك المستقبل

من يمتلك ماذا؟

جنرال ميلز ـ تمتلك مويرغلين وكاسكاديان فارم

هاينز ـ تمتلك هين، بريد شوب، آروهيدميلز، غاردن أوف ايتينغ، فارم فودز، إيماجين رايس (آندصوي) دريم، كاسبآ، هيلث ڤالي، ديبولز، نايل سبايس، سيليستيال سيزننغز، ويستبرا، ويستسوي، ليتل بير، وولنت ايكرز، شارى آنز، ماونتن صن، وميلينياز فاينست.

إم و إم ـ مارس تمتلك سيدز أوف تشينج

كوكا ـ كولا تمتلك أودوالا

كيلوغ ـ تمتلك كاشي، مورنينغ ستار فارمز وصن رايز أورغانيك

فيليب موريس/ كرافت ـ تمتلك بوكا فودز وباك تو نيتشر

تايسون ـ تمتلك نيتشرز فارم أورغانيك

كونغرا ـ تمتلك لايت لايف

دين ـ تمتلك وايت ويف سيلك، آلتا دينا، هورايزن، وأورغانيك كاو أوف ڤيرمونت.

يونيليفر ـ تمتلك بن وجيريز

إن العديد من هذه الشركات العملاقة المتعددة الجنسيات، لا تتعاقد مع المزارع المستدامة ذات الإنتاج المحدود والتي نحب أن نتخيلها. فنحن نرى بدلاً من ذلك، مولوداً هجيناً جديداً ـ مزرعة الإنتاج العضوي مع هكتارات وهكتارات من المحاصيل الأحادية. فهناك في كاليفورنيا مثلاً، حيث تكون ظروف الزراعة نموذجية على مدار العام تقريباً، مزارع عضوية كبيرة تنتج فقط مجموعة واحدة من محصول الجزر أو حقولاً واسعة من الخس الروماني والذي يشحن في آخر الأمر عبر البلاد في أكياس مختومة من البلاستيك. وهذه المزارع العضوية الصناعية لا تستولي فقط على الأراضي الزراعية، بل هي تستولي على أرباح سوق الإنتاج العضوي. وتمثل (2%) فقط من العمليات التجارية الخاصة بمزرعة ولاية كاليفورنيا العضوية (نسبة سبعة وعشرين مزارعاً من أصحاب الإنتاج الواسع) تمثل أكثر من نصف مبيعات المنتجات العضوية في الولاية.

ويرى البعض أن الفارق بين المزارع العضوية الصناعية ذات الإنتاج الواسع والمزارع العضوية المستدامة هو كالفارق بين العضوي السطحي والعضوي العميق. فالعضوي السطحي يتبنى الصيغة الناجحة ذاتها التي تتبناها الشركات التجارية ـ التماثل، التآلف، ومجموعات مختارة محدودة من المنتجات لنقلها مسافات طويلة. ربما لا يقومون باستعمال مبيدات حشرية أو كائنات حية معدلة وراثياً، ولكنهم مازالوا يعتمدون على كميات هائلة من مياه الدعم الحكومي وهم يستخدمون وقود النفط بكثرة. وبسبب إصرارهم على إنتاج محاصيل أحادية بكميات ضخمة، فإن هؤلاء المزارعين مازالوا يحاولون مساندة نظام متأصل آخذ في التراجع. وبدلاً من تغذية تربتهم بواسطة التسميد المكثف وتدوير المحاصيل، فإن مزارعي المنتجات العضوية الصناعية يقومون بشراء زجاجات معلبة أو أكياس من السماد «العضوي» الجاهز لرش منتجات محاصيلهم به مما يؤدي إلى تنشيط التربة مؤقتاً غير أنه لا يؤمن قابلية النمو الخاصة بالزراعة العضوية المكثفة.

معتقدات العضوي العميق

- يلتزم المزارعون بالتنوع الحيوي، ويربون أنواعاً مختلفة من الحيوانات والنباتات التي تتم مداورتها حول الحقول لتغذية التربة والمساعدة على منع الأمراض وانتشار الحشرات الضارة.
- تُحترم الموارد مثل المياه، والتربة، والهواء ويتم سد النقص فيها بحيث تكون المزرعة نظاماً بيئياً ذاتياً ولا تتسبب في أي ضرر للأجيال القادمة.
- لا تلوث الفضلات الموجودة ضمن النظام البيئي للمزرعة الأرض والهواء أو ممرات المياه المجاورة.
- لا تُستخدم المواد الكيميائية الزراعية ما لم يكن ذلك ضرورياً تماماً (وفقط بحذر شديد وبأقل قدر ممكن).
- تعامل الحيوانات بإنسانية ويتم الاعتناء بها جيداً. ويسمح لها بممارسة سلوكها الطبيعي مثل الرعي، أو نبش التربة، أو نقرها، وتُغذى غذاء طبيعياً ملائماً لأنواعها.
- يتم التعويض على المزارعين بشكل عادل ويعامل العمال بطريقة عادلة، وتدفع لهم رواتب تنافسية وإعانات. ويعمل عمال المزارع أيضاً في بيئة سليمة مع تأمين الشروط الصحية والطعام الصحي.
- تسهم المزرعة في توزيع الغذاء المحلي، والتخفيض إلى الحد الأدنى، من التكلفة، وآلية المعالجة، والتعليب، والتلوث الذي يسببه النقل لمسافات بعيدة.

ما يزال العضوي السطحي يشارك في بنية تحتية تدعم الإنتاج الضخم، والتعبئة المفرطة، وشحن الطعام آلاف الأميال إلى متجر البقال. وما يزال العضوي السطحي بحاجة إلى الكثير من الوسطاء وإلى ترتيبات قصيرة الأمد، وفي النهاية فإن نجاح العضوي السطحي يقاس بالربح وليس بالاستدامة.

ولدينا على الجانب الآخر من المشهد، العضوي العميق، المزارع التي تظهر ضمن الملصقات المصورة التي نحب أن نتخيلها عندما نشتري الأغذية العضوية:

المزارع ذات الإنتاج المحدود، المستدامة، والتي تعمل في خدمة الأرض وليس في خدمة «فعاليات» صناعة الشركات. ولا يلجأ المزارعون المستدامون للمنتجات العضوية لإنتاج محصول واحد بكميات ضخمة لأنهم يدركون أن مفتاح الأنظمة البيئية المزدهرة هو التنوع. وباستخدامهم لعملية تدوير المحاصيل والتسميد فإنهم يجسدون العلاقات المتداخلة لعالم الطبيعة من أجل إيجاد تربة صحية ونباتات سليمة. وبدلاً من استيراد المياه، فإنهم يستخدمون موارد طبيعية لضمان تدفق المياه، وعندما يتم حصاد الغلال تسعى مزارع المنتجات العضوية العميقة إلى إيجاد أسواق بيع محلية من أجل الإبقاء على الطعام طازجاً بشكل تام، ومن أجل خفض التلوث الناجم عن النقل والتعبئة إلى حده الأدنى.

هذه الأمور جميعها تعمل على تحقيق برامج مختلفة. فالعضوي العميق يحاول زراعة أطيب الأغذية مذاقاً وأكثرها تغذية ما أمكن، في الوقت الذي يقوم فيه بضمان صحة كوكب الأرض. أما العضوي السطحي فهو يريد الاستجابة لمعايير شهادة الجودة ضمن النموذج الصناعي. وعليه فليس هناك مايدعو للدهشة في قيام الشركات بالضغط على المشرعين الحكوميين لجعل مهمة بطاقة «العضوي» المرغوبة، أفضل بالنسبة للزراعة الصناعية. وفي عام 2004 أوشكت وزارة الزراعة في الولايات المتحدة على التخفيف من معايير الجودة العضوية بحيث يُسمح باستخدام الكائنات الحية المعدلة وراثياً، والأسمدة المتضمنة طمي الصرف الصحي، وتعريض الأغذية للأشعة بغرض جعل تخزينها أفضل على المدى الطويل. كما درست وزارة الزراعة الأميركية موضوع السماح للمزارعين بالاحتفاظ بشهادة الجودة العضوية الخاصة بهم حتى لو كانوا يستعملون هورمونات النمو الحيوانية. وبفضل تدفق الرسائل من المستهلكين الغاضبين ومزارعي المنتجات العضوية، تراجعت وزارة الزراعة الأميركية عن موقفها.

ليس من المرجح أن يتلاشى هذا الضغط طالما أننا نتحمل أوامر الشركات التجارية الكبرى المدفوعة بهدف تحقيق الأرباح في محاولتها للضغط من

أجل تخفيف ضوابط المصادقة على شهادة المنشأ العضوي. فكلما كان لدينا شركات أكثر تتنافس على الإنتاج العضوي، ازدادت رغبتها في صياغتها حسب ما يلائمها.

إنها ليست من مخيلاتنا ...

العضوي مغذ أكثر فعلاً

على مدى نصف القرن الماضي، وفيما أصبحت التجارة الزراعية المعتمدة على الكيماويات هي السائدة بشكل أكبر، كان هناك تناقص مطرد في مستوى المعادن في الفاكهة والخضار. وقد أدرك الكثيرون منا أن الغذاء المزروع في تربة عضوية غنية وخصبة كان مغذياً أكثر من الأغذية المزروعة وفقاً للنمط التقليدي، غير أنه لم تكن هناك الكثير من الدراسات الشاملة التي دعمت هذا الحدس.

في عام 2001 أجرت اختصاصية التغذية فيرجينيا وورثينغتون بالتعاون مع جمعية التربة في المملكة المتحدة دراسات مكثفة قارنت فيها بين مستوى التغذية في الأطعمة غير العضوية والأطعمة العضوية. وتؤيد النتائج غرائز مشتري المنتجات العضوية. فقد تبين بالمقارنة مع المحاصيل التي زرعت باستخدام أسمدة كيماوية ومبيدات حشرية، أن المحاصيل المزروعة عضوياً تحتوي عموماً نوعية أفضل من البروتين ونسبة أعلى من فيتامين C ومعادن، لاسيما الكالسيوم، والمغنزيوم، والحديد، والكروم. فهذه الفروقات لم تكن متباينة بشكل صارخ إلى حد يجعلك تستند في شرائك للمنتجات العضوية إلى احتوائها على كمية أكبر من المواد الغذائية ولكن ذلك يؤكد ما كان يقوله لنا الحس السليم طوال الوقت ــ كلما كانت التربة صحية أكثر كان الطعام صحياً أكثر.

ورغم أن القليل من المستهلكين قد يشككون في فوائد الحصول على شهادة معتمدة بشأن المعايير العضوية على مستوى البلاد، فإن وزارة الزراعة في الولايات المتحدة لم تصدر بعد ضوابط بشأن الأثر الضار للزراعة الصناعية. فهي على سبيل المثال لا تحدد كمية مياه الدعم الحكومي المسموح باستخدامها. كما أنها لا

تضع قوانين خاصة بمعايير العمل الزراعي. كذلك فإنها لا تحدد كمية وقود النفط الذي يمكن استخدامه في الإنتاج ولا تراقب الهدر الذي يسببه الإفراط في عملية التعبئة. وهي على أي حالة تطالب بتزويدها بالمقدار ذاته من التقارير المكتوبة والموثقة من الشركات التجارية ذات الإنتاج الواسع النطاق، كما تطلبها من شركات تجارية محدودة الإنتاج. ولأن لدى المنتجين الكبار مرجعيات أكثر لتتولى التعامل مع موضوع كتابة التقارير والبيروقراطية اللازمة من أجل الحصول على مصادقة وزارة الزراعة الأميركية على الزراعة العضوية، كما أنها مجهزة بشكل أفضل لتلبية الطلبات الكبيرة للمعامل ومتاجر السوبر ماركت، فإنها تقوم تدريجياً وعنوة بدفع الكثير من الرواد، الذين أعطوا بطاقة المواصفات قابليتها التسويقية، خارج الصورة. وهكذا فإن تاريخ سيطرة القوي على الضعيف في مجال التجارة الزراعية يعيد نفسه في قطاع الزراعة العضوية حيث يتم دحر مُزارع الأُسر ذي الإنتاج العضوي المحدود على يد مزارعي المنتجات العضوية الصناعية.

كلفة الأغذية العضوية

صحيح أن الأطعمة العضوية غالباً ما توجد وهي تحمل لصاقة تبين ثمناً أغلى لها. ولهذا السبب يجادل البعض بأن الحركة العضوية هي حركة للنخبة ـ تقدم الأطعمة الصحية فقط للأكثر ثراءً. وفي الواقع، فإن متوسط دخل شخص يشتري طعاماً عضوياً بصورة متكررة في الولايات المتحدة هو (43,280) دولاراً ـ طبقة وسطى متينة ـ و(31%) من الذين يواظبون على شراء المنتجات العضوية يجنون أقل من (43,280) دولار سنوياً. ومع تزايد عدد الأشخاص الذين يقومون بشراء منتجات عضوية سوف يزداد انخفاض الأسعار: وسيكون على الموردين تقديم طلبات الشراء مما يعني أن المزيد من المزارعين سوف يتشجعون للإقدام على الزراعة العضوية لأنهم يملكون سوقاً مستقرة لسلعهم. إذن هذا يزيد من سهولة توفر الغذاء العضوي والذي غالباً ما يؤدي إلى انخفاض السعر بالنسبة للمستهلكين.

بعض الأشخاص يدفع عن طيب خاطر ثمن الأطعمة العضوية، وينظر إلى الأمر على أنه تبرع خيري ـ وسيلة لدعم صحة الكوكب أو المزارعين الذين يحاولون التصرف على نحو صائب تجاه الأرض وتجاه مجتماتهم. كما تعتبره بعض المجتمعات الروحانية أيضاً، ضريبة صغيرة (عُشارية) مما يعني أخذ مقدار من دخل أحدهم وإعطاءه للعالم مرة أخرى بطريقة تدعم الخير الأعظم.غير أن أشخاصاً آخرين يرون فيه نوعاً من قسط للتأمين الصحي مع إدراكهم أنهم بتخليص أجسامهم، وأجسام أطفالهم من المواد الكيميائية الزراعية، فإنهم قد يصبحون أقل عرضة للمرض.

هل بمقدورنا حقاً تحمل الطعام «الرخيص»؟

هناك مسألة أخرى: فنحن بحاجة للتفكير بعناية في التكاليف المخفية للأطعمة غير العضوية. فقد أُرغمنا لسنوات على القبول بالتلوث الكيماوي لكوكبنا ولأجسامنا بدعوى إيجاد طعام وافر «رخيص» ولكن ما مدى رخصه فعلاً؟ إن الكلفة الحقيقية للزراعة الصناعية لا تظهر مطلقاً على لصاقة السعر في مخزن البقالة. الثمن لايظهر أبداً مقدار النقود التي يقدمها دافعو الضرائب من أجل الدعم الحكومي للأعمال التجارية الزراعية. والسعر المحدد في مخزن البقالة لا يعكس أيضاً كم ندفع من أجل صحتنا المدمرة وأجهزتنا المناعية التي تم إضعافها. ويكاد يكون مستحيلاً معرفة المبلغ الذي ننفقه في محاولتنا للتخلص والتأقلم مع الضرر البيئي الذي تتسبب فيه الزراعة الكيماوية المكثفة، غير أنه يُقدر بمبلغ تسعة بلايين دولار سنوياً في الولايات المتحدة. ونحن ليس بمقدورنا أبداً أن نتحمل هذا الطعام «الرخيص» الثمن بعد الآن. فهنالك ما يعادل ثلاثة ملايين طن من المبيدات الحشرية والمبيدات العشبية والمبيدات الفطرية تستخدم على هذا الكوكب كل عام، وكل قارة مثقلة بالتكلفة المتزايدة للتخلص من هذا التلوث الكيماوي والموجود بشكل خاص في الجداول والأنهار والبحيرات.

ماذا بإمكانك أن تفعل؟

لسوء الحظ، سيستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى تصل الأرض إلى وضع الانهيار، بحيث تشفي نفسها من التسمم الكثير الذي سببته الزراعة باستخدام المواد الكيميائية. ونحن لا يمكننا في الوقت الحاضر أن نخلص أنفسنا بسهولة مما قد فعلناه مسبقاً، ولكننا نستطيع أن نتوقف عن إضافة المزيد. وهناك طريقة واحدة أكيدة لفعل ذلك: تناول طعاماً عضوياً. فإذا ما قمت بشراء طعام من الصنف الذي يحمل عبارة «عضوي معتمد» فإنك ستحصل على ضمان بأن تمت تنميته بدون مبيدات حشرية كيماوية، أو كائنات حية معدلة وراثياً، أو أسمدة كيماوية، وكذلك بدون طمي الصرف الصحي أو عدم حفظه بتعريضه لأشعة إيونية.

قد يظن أتباع المذهب الصفائي المتسم بالبساطة والوضوح، أننا يجب ألا نبالي بشهادة المصادقة على المنشأ العضوي في حال جرى التعاون بشأنها انطلاقاً من مصالح الشركات، ولكن علينا أن نتذكر أيضاً أن الحركة المتصاعدة لشهادة المنشأ العضوي تقوم بإنجاز الكثير لحماية المستهلكين، وكذلك البيئة، من الأضرار التي تحدثها الزراعة الصناعية. إن شهادة المنشأ العضوي تؤمن لنا إجراءات حماية مهمة ـ كإجبار تجارة الأعمال الزراعية على التخلي عن بعض ممارساتها الأكثر تدميراً. إن خط إنتاج كامل من أطعمة «ماكدونالد» العضوية، والمشروبات الغازية «الكوك» العضوية قد يبدو وكأنه انحراف مخيف يفسد النوايا المقدسة للرواد العضويين. إلا أن أي قيود نتمكن من فرضها على عالم الشركات تظل ضرورية. وربما تعطي الشركات، في بعض الحالات بالفعل «قوة» اقتصادية أكبر واعترافاً من المستهلك بأعمال تجارية أخلاقية محدودة بدون إفساد قيمها الجوهرية. مثلاً عندما قامت شركة «ام وام ـ مارس» بشراء شركة (سيدز أوف تشينج) فقد ساعدت بذلك على تمويل شركة رائعة كانت قد ظلت مكرسة للزراعة المستدامة وحماية نقاء وتراث مخزوننا من البذور.

وكما ذكرنا، فإن تنامي توفر الأطعمة العضوية يعطينا دليلاً راسخاً على قوة المستهلكين. إنه يقول إننا نجبر الشركات، وبعضها من أكبر الأسماء في عالم التجارة الزراعية، لتغيير أساليب الزراعة التي تتبعها ولكي تنتفع من الاتجاه الأسرع نمواً في مجال الصناعة. وسوف أحدثكم في الفصل المقبل بالمزيد عما بإمكانكم أن تفعلوه لتدعموا مباشرة المزارعين من ذوي الإنتاج العضوي العميق الذين يعملون على نطاق محدود، والذين نكن لهم التقدير بصورة كبيرة.

تجنب المبيدات الحشرية والمواد الكيميائية الأخرى

مالم تقم أنت وبشكل رئيسي بشراء أغذية عضوية، فإن إحدى ثلاث مواد في خزانة مطبخك أو ثلاجتك سوف تتضمن على الأرجح رواسب لمبيدات حشرية. لقد أثبتت الفحوصات التي أجرتها الحكومة وجود بقايا لعدد يصل إلى سبعة مبيدات حشرية مختلفة على ورقة واحدة من خضار الخس غير العضوي، وعليه فإذا كان أحد الأسباب الرئيسة التي تقف وراء شرائك للمنتج العضوي هو التقليل من تعرضك للمواد الكيميائية الزراعية، فربما تكون راغباً في استبدال العضوي بالمنتج الذي يحتوي تماماً على أعلى المستويات من الرواسب الكيماوية.

الأغذية العضوية التي يتوجب الحصول عليها

تفيد تقارير المستهلك وغيرها من تقارير مجموعات الصحة العامة أن الفاكهة والخضار التالية تحوي بشكل خاص على مستويات عالية من الرواسب الكيماوية، ولذلك تزداد الضرورة لشرائها في صورتها العضوية:

توت السياج (العلّيق)	عنب، وزبيب
تفاح	بطاطا
دراق	سبانخ

بطيخ أصفر	بندورة
كرز	القرع
كرفس	فريز
بازيلاء خضراء	

فيتوجب على المتسوقين في الولايات المتحدة أن يتجنبوا أيضاً الفاكهة والخضار المستوردة وغير العضوية، باعتبار أنها تحوي دائماً على كمية من الرواسب أكبر مما تحويه النماذج المحلية. كذلك فإن العديد من شركات المواد الكيميائية تجمع المبيدات الحشرية المحظورة في الولايات المتحدة، وتفرغها في بلاد أخرى حيث توجد قيود حكومية أقل.

ومن الحوافز الأخرى التي تميز الأغذية التي تحمل شهادة منشأ عضوي أنها يجب أن تصنع دون معالجتها بالكثير من المواد المنكهة التي تضاف للأطعمة والتي ارتبطت بأمراض كالسرطان، وأمراض القلب، والشقيقة، وفرط النشاط وهشاشة العظام. فعلى سبيل المثال، إن اللون الأحمر القانئ لبعض ثمار فاكهة الفريز غير العضوية يأتي من المبيد الحشري (كاتبان)، وهو على الأغلب مورث بشري للسرطان يخدش الجلد والعيون، وسام جداً للأسماك. كذلك ارتبط حامض الفوسفور الموجود في المشروبات الغازية بهشاشة العظام. وارتبطت مادة الاسبارتان الصناعية التي تستخدم للتحلية والموجودة في الأغذية غير العضوية باضطراب المزاج، وصداع الشقيقة. وترتبط بهارات الطعام المعروفة باسم (M.S.G) والتي تعرف علمياً بالحامض الأميني وحيد الصوديوم، ترتبط بمرض الربو وأوجاع الرأس.

أطعم الأولاد والأطفال منتجات عضوية

وكما ذكرنا، فالأولاد هم عرضة بصورة خاصة، لمضاعفات رواسب المبيدات الحشرية. ونحن نملك الآن برهاناً علمياً عما أبلغنا به الحس السليم: فالأولاد

والأطفال الذين يكون معظم غذائهم متضمناً أطعمة عضوية، لديهم مستويات أدنى من رواسب المبيدات الحشرية في أجسامهم من الأولاد الذين يأكلون أطعمة غير عضوية.إذن، فإن الاستثمار في إطعام الأولاد أغذية عضوية أمر له قيمته بحق.

إن لم يكن أمامك من خيار سوى أن تقدم أطعمة غير عضوية، فإن بإمكان الأهالي التخفيف من تعريض أولادهم للمضاعفات بأن يقدموا لهم خضاراً ذات طبقة خارجية أكثر سماكة، أو قواقعاً، أو ثماراً مقشرة باعتبار أن الفاكهة والخضار ذات الطبقة الرقيقة تبدو أكثر ميلاً لأن تحوي على رواسب. ووفقاً للبحث الذي أجرته مؤسسة «تقارير المستهلك» فإن بقايا المبيدات الحشرية داخل حبة واحدة من الدراق "قد تجاوزت بصورة مستمرة" الحد اليومي السليم المنصوح به من قبل هيئة حماية البيئة بالنسبة لولد يزن أربعة وأربعين باوناً. وباعتبار أن بالإمكان نقل رواسب المبيدات الحشرية (غالباً بشكل أكثر تركيزاً) عبر الحبل السري وحليب الأم، فإنه من الضروري على نحو خاص بالنسبة للنساء الحوامل أو اللواتي يرضعن أطفالهن أن يتبعن هذه الإرشادات.